لماذا هذه السلسلة

من منطلق الالتزام بالمسئولية الاجتماعية الملقاة على عاتق المشتغلين بالعلم عامة، وبالعلوم الاجتماعية بوجه خاص رأينا أن نقدم هذه السلسلة من المؤلفات فى موضوعات علم النفس المختلفة. ومن المنطلق ذاته اخترنا لها الاسم الدال على توجُّهها الرئيسى، «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية»؛ ذلك أنها تهدف أساسًا إلى إثراء حياتنا الاجتماعية بالمعنى الخاص (حيث التطبيقات المحددة فى مجالات اجتماعية بعينها)، وبالمعنى العام (حيث إتاحة المزيد من المعارف العلمية الحديثة حول سلوكيات البشر لينهل منها الفكر الشائع فى مجتمعنا).

وإحقاقًا للحق فقد تولدت فكرة إصدار هذه السلسلة فى ثنايا حوار كان يجمع بين الوضوح والهدوء والحسم، جرى أولا بينى وبين الصديق العزيز الأستاذ الدكتور جابر عصفور. وكنت أحاول الاستئناس برأيه فى نشر مجموعة من دراساتى العلمية لها من الصفات ما يجعلها وسَطًا بين العام والخاص، قراءة واستيعاباً، فما لبث الدكتور عصفور أن أشار بأن أعهد بأمانة النشر إلى الناشر المرموق الأستاذ محمد رشاد، صاحب «الدار المصرية اللبنانية»، ثم بادر بالسعى الحثيث فى عقد آصرة علاقة متميزة بينى وبين الأستاذ رشاد قوامها التسليم مسبَّقا بالتقدير والإعزاز المتبادلين. والتقيت بالأستاذ رشاد فأسعدنى اللقاء سواء على المستوى الإنسانى أو على المستوى العملى فى تحركه نحو الإنجاز المتميز. لم يكن فى مخططى عند فاتحة الحديث سوى نشر كتاب واحد، فإذا بالرجل يأخذ زمام المبادرة فيطرح للنقاش اقتراحا بأن يكون هذا الكتاب فاتحة تعاون بيننا لنشر سلسلة من الكتب فى مجال العلوم النفسية الحديثة. ولقى الاقتراح عندى ترحيبا ورجاء بالتوفيق. واقتضى ذلك إعادة النظر فى البناء الداخلى للكتاب الذى أثار هذا التسلسل الخصب من اللقاءات والمناقشات والمقترحات. وكان جوهر السؤال المطروح أمامى فى هذا الصدد هو: هل يُنشر الكتاب بتصميمه الأساسى

الذى وضعتُه له منذ شغلنى أمره؟ ولم أجد الإجابة ميسورة عندما بدأت الدخول فى هذا المنعطف من التفكير، وكان السبب الرئيسى لهذا العُسْر يتمثل فى الطبيعة الخاصة للكتاب، وما فرضته هذه الطبيعة الخاصة علىَّ من ضرورة العناية بالنظر فى عدد من المفاضلات بين محاسن الإبقاء على التصميم الأصلى ومخاطره.

كان التصميم الأصلى يقضى بأن يضم الكتاب بين دفتيه حوالى ثلاثين فصلا، تتوزع موضوعاتها بين ستة أبواب كبرى فى علم النفس وحوله. وقد سبق لى أن نشرت هذه الفصول جميعا كدراسات متفرقة (فى دوريات متعددة)، وكان بعض هذه الدراسات نظريا والبعض الآخر عمليا، وقد امتدت تواريخ نشرها على مدى أكثر من خمسين عاما (من ١٩٤٦ إلى ١٩٩٨) هى عمر اشتغالى بعلم النفس دراسة وتدريسا وتطبيقا، كان هذا هو التصميم الأساسى للكتاب فى صورته المبكرة؛ وكان ببنيته هذه يحمل إلى القراء عددا من الرسائل؛ بدءًا من دعوتهم إلى إطلالة على مساحات من الآفاق الرحبة لمباحث علم النفس وتطبيقاته، وانتهاء إلى حثّهم (كرأى عام ورأى خاص) على الاستزادة ما أمكن من ترسيخ دعائم هذا العلم وحسن توظيفه فى مجتمعنا المصرى خاصة والعربى عامة. وبين نقطتى البدء والانتهاء كان تصميم الكتاب يحمل رسائل أخرى، فى مقدمتها رسالة ضمنية موجهة إلى من يهمه أمر التاريخ للاشتغال بالفكر العلمى، والفكر العلمى الاجتماعى بوجه خاص، كيف وقع هذا الاشتغال لرجل كرَّس حياته فى هذا السبيل؛ كيف كان المسار؟ وما الذى حكم توجهاته؟ وماذا تحكم فى منعطفاته؟ هكذا كان التصميم الأصلى للكتاب، وتلك كانت مضامين الرسائل التى رجوت أن يحملها إلى القراء.

وعندما أعدتُ النظر فى الأمر بعد ما كان من لقاءات ومناقشات وجدتُنى أمام منظور جديد يحفظ على التصميم الجوهر ويضحّى بالشكل؛ فمضمون الكتاب باق كما هو ولكن فى صورة جديدة، فبدلا من كتاب واحد ضخم يقع فى ستة أبواب، يتوزع هذا الكيان بين أربعة كتب ذات أحجام وسط. وانتهى بى الأمر إلى ارتضاء هذه الصورة الأخيرة لأسباب عملية، ليس أقلَّها التيسير على القارئ

بشتى معانى التيسير. ثم إن هذه الكتب الأربعة سوف تكون أمام القارئ بمثابة عينة واضحة الدلالة على نوع الكتب التالية التى يمكنه أن يتوقع صدورها فى إطار سلسلة «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية» كما نخطط لها.

هكذا فى كلمات موجزة وأمينة يسعدنى أن أقدم للقارئ قصة هذه السلسلة من الكتب، كيف بدأت وكيف تبلورت فى الطريق إلى التنفيذ. وقد أثبتُّ لأصحاب الفضل فضلهم فى هذا الشأن، راجيا التوفيق لنا جميعا فيما التقينا حوله.

مصطفى سويف

يونية ١٩٩٩

obeikandl.com

obeikandl.com

تصديـــر

يضم هذا الكتاب خمسة فصول، تتناول علم النفس العيادى من جوانب مختلفة، روعى فى انتقائها أن تقدم للقارئ جولة كاشفة وممتعة معًا؛ فأما عن نصيب مادة الفصول من الكشف فيأتى من كونها تتناول فى كثير من الأحيان أمورًا لم يقرأ عنها القارئ العربى من قبل، وفى بعض الأحيان تصل الجدَّة بهذه الأمور إلى كونها لم تُطرح على بساط البحث بين الباحثين على الصعيد العالمى إلا فى السنوات القليلة الماضية. وأما عن نصيب الإمتاع فى الأسلوب الذى كُتبت به الفصول فيأتى من أن الخطاب فى هذه الفصول لم يقتصر على التوجُّه إلى أهل الاختصاص من الباحثين وطلاب العلوم النفسية فحسب، بل اتسع توجُّهه ليشمل القارئ الذى تحرّكه جذوة القراءة أيًّـا كانت مسالكه فى الحياة، وقد اقتضى ذلك أن يبتعد أسلوب الحديث عن المصطلحات التقنية ما أمكن، وأن يتوافر له من السلاسة ما لا يعرّض للتعثر من حين لآخر فى حشود زائدة من المعلومات.

وقد كرَّستُ الفصل الأول من الكتاب للحديث عن «علم النفس العيادى فى مصر»، كيف ومتى نشأ، وما الصورة التى استقر عليها الآن عندنا؛ كعلم ضمن علوم التخصص فى جامعاتنا، وكممارسة مهنية لها خدماتها الموكولة إليها فى عالم الصحة والمرض النفسيين، ولها قيودها التنظيمية من داخلها والقانونية من خارجها. وفى الفصل الثانى تحدثتُ عن الظروف والملابسات التاريخية الإنسانية التى تفاعلت معاً حول المضمون العلمى (الفكرى والتقنى) لهذا التخصص، وتوقيت ظهوره، وكانت (هذه الظروف والملابسات) فى ذلك مشدودة من ناحية إلى المواصفات العالمية لهذا العلم، ومن ناحية أخرى مستجيبةً بالفعل والانفعال لظروف أخرى شديدة الخصوصية التاريخية للحياة فى مصر فى فترة بعينها، ولجهود أشخاص بأعيانهم وتوجهاتهم العامة والخاصة.

أما الفصل الثالث فيتناول موضوعًا شديد الحداثة، وهو موضوع البُعد الحضارى فى العمل العيادى؛ وتكشف الأهمية العملية لهذا الموضوع عن نفسها من خلال طرح السؤال الآتى: إلى أى مدى يستطيع الأخصائى النفسى العيادى أن يستخدم فى عمله فى مصر مجموعة التقنيات (وأحيانا المفاهيم)، اللازمة للفحص والقياس التشخيصى المتوافرة حاليًا، ومعظمها مبتكر فى الخارج (فى الدول الغربية بوجه خاص). وقد صاغها مبتكروها وعينهم على مرضاهم النفسيين، وعلى الاضطرابات النفسية كما تفصح عن نفسها لديهم (فى الخارج). والسؤال نفسه مطروح كذلك بالنسبة لطرق العلاج النفسية الحديثة. وجدير بالذكر أن هذا الموضوع شديد الحداثة، ومن ثم فالكتابات فيه شحيحة فى الخارج ونادرة فى الداخل. ولذلك وجدتُ لزاما علىَّ أن أعالجه من موقعنا نحن (الأخصائيين والمحتاجين لخدماتنا) هنا فى مجتمعنا المصرى بما له من خصائص، تجعله متفردًا من ناحية ومشاركاً من ناحية أخرى فى تيار الحضارة الإنسانية المعاصرة.

ويسلّط الفصل الرابع الضوء على مشكلة شديدة الارتباط بالموضوع السابق، وهى مشكلة تعريف الصحة النفسية، وضرورة صياغة هذا التعريف صياغة يدخل فى حسابها الإطار الحضارى بالصورة التى يتدخل بها هذا الإطار فى تشكيل «الذات»، (التى هى أكثر مكونات الشخصية مركزية). ولا يعنى ذلك إطلاق العنان لمفهوم النسبية الحضارية دون قيود، فالمسألة أعقد من ذلك بكثير.

وأخيرًا، فقد خصصنا الفصل الخامس لمناقشة العلاقة بين علم النفس والطب النفسى، مع اهتمام خاص بجوانبها العملية فى الحاضر والماضى، وما يُتوقع لها فى المستقبل. ويصدر اهتمامنا بهذه العلاقة بوجه خاص نتيجة لحقيقة لايمكن إغفالها، ولا التهوين من شأنها، وهى أن التخصصّين (الطب النفسى وعلم النفس بفرعه العيادى بوجه خاص) تقوم بينهما مساحة كبيرة مشتركة، مساحة من الموضوعات والمفاهيم والتقنيات، ومن ثم فكلما توثقت عُرى التعاون الواعى بينهما، كان ذلك لخير التخصصين تعليماً وبحثا وتطبيقا.

أما بعد ـ

فمن المؤكد أن هناك أبوابا أخرى عديدة، يمكن أن ينصرف إليها الحديث فى ميدان علم النفس العيادى. ولكننى لم أطمح بهذا الكتاب لأن أقول كل شىء فى هذا التخصص. كل ما طمحتُ إليه هو أن أقدّم للقارئ، حديثا يجمع بين المعرفة العلمية، والطرافة، والدلالة الاجتماعية، وقد ارتأيت أن أتوجه بالحديث إلى القارئ المتخصص شحذًا لحسّ المسئولية لديه، وإلى القارئ غير المتخصص إعمالاً لحقّه فى المعرفة بوجه عام، وحقه بوجه خاص فى أن يعرف ما قد يطلب يومًا من الأيام (هو نفسه أو شخص من أعزائه) بعض تطبيقاته.

* * *

أما عن الأسماء التى أدين لأصحابها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بما أودعتُ فى هذا المجلد من أفكار ومن روح عامة تغلّف هذه الأفكار، فإنها تجلُّ عن الحصر، ومن ثم فقد رأيت أن أكتفى بتقديم الشكر والاعتراف بالفضل لأصحاب أكبر هذه الديون ثقلاً، وفى مقدمتهم الأستاذان هانز أيزنك ومونتى شابيرو (من جامعة لندن) فهما أول من علَّمنى علم النفس العيادى فى صورته رفيعة المستوى من حيث قواعد المنهج، وأخلاقيات التطبيق. وأدين بالشكر كذلك للأساتذة مصطفى زيور، وأحمد عكاشة، وأسامة علوان، وأحمد وجدى، أساتذة الطب النفسى والعصبى، الذين باركوا ما قدَّمتُه من توجُّه أساسى بفيض من التعاون الأكاديمى والمهنى الجدير بالتوقير والاحترام، مما يجعلهم بحقّ مسهمين فى كل ما يسفر عن هذا التوجه من ثمار إيجابية فى الحاضر والمستقبل. وأدين كذلك للأستاذين الصديقين رمضان عبد الستار ويووى جيلين؛ لأنهما معاً أول من استحثّنى على كتابة الكثير مما أوردته فى الفصلين الأول والثانى من المجلد الراهن للنشر بالإنجليزية فى كتابهما غير المسبوق عن «علم النفس فى الدول العربية».

وقبل وبعد هؤلاء جميعًا أدين لمجموعة من تلاميذ الأمس وزملاء اليوم،

ممن لا يفتأون يُلقون إليَّ بأسئلتهم فيستزيدوا علماً وأزداد سعادةً لأن ما أقول يلقى نفوساً مقبلة، وآذانا مُصغية، وعقولا متفتحة. كما أدين لجميع الأعزاء المترددين على عيادتى لما نحققه معاً من علاقة تكافلية تؤتى ثمارها لكل منا، هم يتوقعون منى الرعاية المهنية ويتلقونها بأفضل مضمون وأفضل صورة، وأنا ألتمس عندهم مايرُضى النفس كلما أصبتُ التوفيق، ويُثرى العقل كلما استشعرتُ الحاجة إلى مزيد من العلم والحكمة.

وأخيراً وليس آخراً فالتعبير عن الامتنان هو أقل ما أستطيع أن أقدمه «لدار النشر المصرية اللبنانية»؛ تقديراً لرسالتها التى تحرص فى تحقيقها على الكيف قبل الكم، وللأستاذ محمد رشاد، بوجه خاص، الذى له فضل ملحوظ فى صياغة الرسالة على هذا النحو

مصطفى سويف

أبريل ٢٠٠١